مكتبة بيت الحكمة و دورها في الحضارة العربية الإسلامية

د.محمد عيساوي
جامعة المسيلة

تمهيد :

كان للمكتبات العلمية الإسلامية تأثير بالغ على ازدهار الحضارة الإنسانية و تطورها حتى ظهرت بصورتها الحديثة ومن أشهر هذه المكتبات مكتبة بيت الحكمة ببغداد، التي تعتبر من أعظم دُور العلم في الأرض،وأحد الكنوز العلمية التي أنتجها الفكر الإسلامي قديما كما أنتج الكثير من الصروح العلمية في سائر الأقطار.وكانت بيت الحكمة بمثابة جامعة علمية عالمية،يقصدها الطلاب على اختلاف أجناسهم و أديانهم،للنهل من مختلف العلوم والفنون . (1)

أولا : نشأة بيت الحكمة

قام الخليفة أبو جعفر المنصور(136 هـ _ 754م)(158هـ _775م) على إنشاء هذه المكتبة في عاصمة الخلافة العباسية بغداد ؛ حيث خصص بناية مستقلة جمع فيها نفائس الكتب و نوادرها من المؤلفات العربية و المترجمة عن اللغات المختلفة ، و لما تولى الخليفة هارون الرشيد الحكم (170هـ _ 786 م) (193 هـ - 809م) اتجه إلى إخراج الكتب و المخطوطات التي كانت تحفظ في قصر الخلافة بعد أن تضخَّم رصيدها من التراث المدون و المخطوطات المؤلفة المترجمة ، و إفرادها بمبنى خاص بها ، يصلح لاستيعاب أكبر عدد من الكتب ، و يكون مفتوحا أمام كل الدارسين و طلاب العلم ، فأسس دارا رحبة ضخمة ، نقل إليها كل الذخائر و سماها بيت الحكمة ؛ تقديرا لجلال رسالتها ، و التي تطورت فيما بعد و أصبحت أشهر أكاديمية علمية عرفت في التاريخ ، (2) ثم كان التطور الأكبر لها في عهد المأمون (198 هـ - 813 م) (218 هـ - 833م) الذي استطاع أن يجلب لها كبار المترجمين و الناسخين و العلماء و المؤلفين ، بل كان يرسل بعثات علمية إلى بلاد الروم ، التي كان لها أعظم الأثر في نهضة و علو هذه الصرح العلمي الفريد.(3)

و هناك من الباحثين المستشرقين من قصر إنشاء مكتبة بيت الحكمة على الخليفة المأمون ، منهم ألكسندر ستيبتشفيتش حيث قال عن المأمون "أسس الأكاديمية المعروفة _بيت الحكمة _التي ضمت مرصدا فلكيا و مكتبة ضخمة ." (4) و ماكس مايرهوف الذي قال : إن المأمون أنشأ مدرسة للترجمة في بغداد سماها بيت الحكمة سنة 215هـ / 830 م . (5)

ثانيا :التسمية

تم إعطاء أسماء كثيرة على هذا الصرح العلمي ؛ فهناك من يسميه بيت الحكمة و البعض الآخر يسميه خزانة الحكمة ، و آخرون يطلقون عليه هاتين التسميتين فالنديم يستعمل مرة بيت الحكمة ، و مرة أخرى يستعمل خزانة الحكمة ، دون تمييز من الناحية العلمية أو من حيث النسبة ، فمرة يقول بيت الحكمة لهارون ، و مرة بيت الحكمة للمأمون ، و تارة خزانة الحكمة لهارون ، و تارة أخرى خزانة الحكمة للمأمون (6)، أما ابن صاعد الأندلسي فسماه بالخزانة و القلقشندي استخدم تسمية خزانة الحكمة ، أما حاجي خليفة فأطلق عليه بيت الحكمة . و اشتهرت تسمية بيت الحكمة من بين تلك التسميات ؛ و يرجع ذلك في رأي الباحثين عبد الباسط الألوسي و عثمان المحمدي إلى أنها " موضع الحكمة و مستقرها و مستودعها و مكانها فضلا على ذلك أنه اسم محبب و خفيف على اللسان ." (7)

ثالثا : مرافق بيت الحكمة

فنشأ بيت الحكمة _ أول ما نشأ _ كمكتبة خاصة ، ثم أصبح مركزا للترجمة ، ثم مركزا للبحث و التأليف ، ثم ما لبث

أن أصبح دارا للعلم يتم إعطاء الدروس فيها و منح الإجازات العلمية ، ثم ألحق بها بعد ذلك مرصد فلكي ، و على هذا الأساس كانت هذه الدار تنقسم إلى عدة أقسام كما يلي :

1_ المكتبة :

كان قسم المكتبة هو الذي يتولى اقتناء الكتب من كل أصقاع الأرض ، و تنظيمها على الرف و إعارتها و مناولتها لكل طالب علم له رغبة في الاطلاع عليها ، و يلحق بذلك قسم النسخ و التجليد الذي كان يقوم باستنساخ الكتب و تجليدها ، و ترميم ما يفسد مما هو موجود ، و كانت طرق تزويد بيت الحكمة بالكتب كثيرة منها : الشراء ؛ حيث كان المأمون يرسل بعثات إلى القسطنطينية لإحضار الكتب أيًّا كان نوعها ، و كان في بعض الأحيان يسافر هو بنفسه و يشتري الكتب و يرسلها إلى بيت الحكمة ، و منها أيضا الاستهداء ، حيث كان الخلفاء يبعثون وفودا إسلامية إلى الدول الأجنبية ، فكانت تهديهم من الكتب الموجودة لديهم ، و منها _ أيضا _ أنه كان في بعض الأحيان يقبل الجزية من تجب عليهم كُتُباً . (8)

2_ مركز الترجمة :

اجتمعت لدى المأمون ثروة هائلة من الكتب و المصنفات القديمة ، فشكَّل لها هيئة من المترجمين المهرة و الشُّرَّاح و الورَّاقين ، للاشراف على ترميمها و نقلها إلى العربية ، و عيَّن مسؤولا لكل لغة يشرف على من يترجمون إرثها ، و أجرى عليهم نفقات وفيرة . (9)

و من أهم المصنفات التي تمت ترجمتها هي مصنفات و كتب الفلسفة اليونانية ، و تعود هذه الحركة إلى زمن الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور (136-158ه) ، الذي أمر بترجمة بعض الكتب القديمة. ثم توسع مجال الترجمة زمن الخليفة هارون الرشيد (ت193ه) عندما أمر الطبيب النصراني يُوحنا بن ماسويه ، بترجمة الكتب القديمة التي عثر عليها بمدينتي أنقرة و عمورية و سائر بلاد الروم ، و عيّنه أمينا عاما على عملية الترجمة من اللغات القديمة إلى اللغة العربية.

ثم انتشرت بصفة واسعة خلال حكم الخليفة المأمون المعتزلي المتشيع (198-218ه) ، بشكل أكبر و منظم ، فأرسل إلى ملوك بلاد الروم يطلب منهم الكتب القديمة ، ليترجمها إلى اللغة العربية ، فأرسلوا إليه كتبا كثيرة ، من مصنفات فلاسفة اليونان و غيرهم من العلماء . (10)

و معظم الذين تولّوا ترجمة الكتب القديمة إلى اللغة العربية ، هم من أهل الذمة ، و قلة منهم من المسلمين ، كالفيلسوف يعقوب الكندي ، و أما الذميون فمنهم : يوحنا بن ماسويه ، و حنين بن إسحاق ،و إسحاق بن حنين ، و ثابت بن قرة الصابئ ،و غيرهم .

و أما ما ترجمه هؤلاء من علوم الأوائل ، فتأتي الفلسفة اليونانية في مقدمتها ، و كانت تظم أربعة علوم رئيسية ، أولها المنطق ،و ثانيها الطبيعيات كالحيوانات ،و النباتات ،و الأجسام و المحسوسات .و ثالثها الإلهيات –الميتافيزيقا- و هي خاصة بغيبيات ما وراء الطبيعة .و رابعها المقادير ، و تسمى أيضا : التعاليم ، و تشمل عدة علوم ، كالهندسة ،و الأثماطيقي –العدد - ،و الموسيقى و الهيئة –علم الفلك - و لابد من التنويه هنا إلى أن عملية ترجمة العلوم القديمة إلى اللغة العربية رافقتها نقائص كثيرة ،و كانت لها آثار سلبية وخيمة على الأمة الإسلامية . (11)

3_ مركز البحث و التأليف :

يعتبر من أهم روافد المكتبة ، حيث كان المؤلفون يؤلفون كتبا خاصة لهذه المكتبة ، و كان هؤلاء المؤلفون يقومون بذلك داخل قسم التأليف و البحث في المكتبة ، أو يقومون بذلك خارج المكتبة ، ثم يقدمون نتاج تأليفهم إليها ، و كان المؤلف

تُقَدَّمُ له نظير ذلك مكافأة جليلة من الخليفة .[12]

4_ المرصد الفلكي :

أنشأ المأمون هذا المرصد في حي الشماسية بالقرب من بغداد ليكون تابعا لبيت الحكمة ؛ و ذلك ليكون تعليم الفلك فيها يجمع بين الجانب النظري و الجانب التطبيقي حيث يُجري فيه الطلاب ما يدرسونه من نظريات علمية ، و كان يعمل فيها علماء الفلك و الجغرافيا و الرياضيات ، مثل الخوارزمي ، و أولاد موسى بن شاكر ، و البيروني ، و من خلال هذا المرصد استطاع المأمون بفريقين من العلماء أن يحسب محيط الأرض .[13]

5_ المدرسة :

حظي بيت الحكمة في عهدي الرشيد و المأمون بجعله دار إقامة للطلاب و الأساتذة ، و أما عن المنهج الدراسي المتبع في بيت الحكمة ، فكان يتم عبر مسلكين أحدهما للمحاضرات و أما الآخر فهو مسلك الحوار و المناظرة و المناقشة ، و كانت العلوم التي يتم تدريسها في هذه المؤسسة تشمل الفلسفة ، و الطب و الرياضيات و اللغات المختلفة كاليونانيةو الفارسية و الهندية إلى جانب اللغة العربية . و عند تَخَرُّج الطالب يمنحه أستاذه إجازة يُذكر فيها اسم الطالب ، و شيخه ، و مذهبه الفقهي و تاريخ الإجازة . [14]

رابعا :إدارة بيت الحكمة

تعاقب على إدارة بيت الحكمة في بغداد عدد من المديرين العلماء ، و كان يطلق على المدير لقب (صاحب) ، فكان مدير بيت الحكمة يسمى (صاحب بيت الحكمة) ، و أول مدير لبيت الحكمة هو سهل بن هارون الفارسي (215هـ / 830 م) و قد ولاه هارون الرشيد القيام بخزانة بيت الحكمة ، و كان ينقل من الفارسي إلى العربي ، و حين تولى المأمون الخلافة ، عَيَّنَه مديرا لبيت الحكمة ، و كان يساعده في هذا المنصب شخص آخر هو سعيد بن هارون .[15]

خامسا : دور بيت الحكمة في الحضارة الإسلامية

أدت مكتبة بيت الحكمة دورا كبيرا في إثراء و رقي الحياة العلمية في المشرق الإسلامي خلال العصر العباسي وبعده،كما كان له الأثر البالغ في الحضارة الإنسانية،حيث كانت أوربا تشهد حالة متدهورة من الناحية العلمية[16].

كما كانت مكتبة بيت الحكمة سببا رئيسا في نبوغ كثير من العلماء الذين حازوا التقدم في علوم كثيرة ، و منهم على سبيل المثال الخوارزمي مُبْتَكِر علم الجبر ، و روى ابن النديم عن اجتهاده العلمي _ خاصة في علم الفلك _ فقال :" و كان منقطعا إلى خزانة الحكمة للمأمون ، و هو من أصحاب علوم الهيئة ."[17]

وكذلك الحال بالنسبة إلى الرازي وابن سينا، والبيروني، وابن النفيس والإدريسي، والكثير من العلماء الذين أنتجهم الفكر الإسلامي،الذي أرست أسسه مكتبة بيت الحكمة وغيرها من المكتبات في أنحاء أقطار العالم الإسلامي . [18]

ولكن على الرغم من القيمة العلمية العالية لهذه المكتبة إلا أن مصيرها كان مأساويا ، حيث أبيدت هذه المنارة العلمية تحت وقع هجمات التتار ، فحملوا تلك الكتب القيمة ، و ألقوا بها في نهر دجلة ، حتى تحول هذا النهر إلى اللون الأسود من أثر مداد الكتب .

و لقد كان من المفروض أن تحمل تلك المصنفات العلمية إلى "قراقورم" عاصمة المغول ليستفيدوا _ و هم لا يزالوان في مرحلة "الطفولة الحضارية" على حد تعبير الباحث راغب السرجاني _ و لكن التتار أمة همجية لا تقرأ و لا ترغب في التحضر .[19]

خاتمة :

اتضح لنا مما سبق الأهمية الحضارية لمكتبة بيت الحكمة التي أسهمت في بلورة الإنتاج العلمي ، و أخذت على عاتقها صناعة الإبداع و التألق و خاصة في مجال العلوم التجريبية .

كما يبرز لنا من خلال هذه الدراسة مدى اهتمام خلفاء بني العباس بالمجال العلمي ، و بناء المؤسسات الثقافية التي شكلت مكتبة بيت الحكمة أحد مقوماتها ، كما اعتبرت في الوقت نفسه رافد محوريا للحياة العلمية بما قدَّمته من علماء ، و عطاء علمي .

كما تجلى لنا من خلال البحث و الدراسة حول حركة الترجمة التي ارتبطت جوانبها ببيت الحكمة و نشاط أهل الذمة خلال فترة المأمون بصفة خاصة بعض الجوانب السلبية و أبرزها إدخال الفلسفة اليونانية في العلوم الشرعية .

قائمة المصادر و المراجع المعتمدة :

(1) _ راغب السرجاني : ماذا قدم المسلمون للعالم ، مؤسسة إقرأ للنشر والتوزيع ، القاهرة ، جمهورية مصر العربية ، 1430هـ / 2009 م ، ج 01 ، ص 226 .

(2) _ خضر احمد عطاالله : بيت الحكمة في عصر العباسيين ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، جمهورية مصر العربية ، ص 29 ، راغب السرجاني : المرجع السابق ، ج01 ، 226 .

(3) _ عمر فاروق فوزي : الخلافة العباسية : عصر القوة و الازدهار ، دار الشروق للنشر و التوزيع ، عمان ، الأردن ، 2009 م ، ج 01 ، ص 71 – 192 ؛ عبد العزيز الدوري : العصر العباسي الأول : دراسة في التاريخ السياسي و الإداري و المالي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، لبنان ، 2006 م ، ص 77 – 139 .

(4) _ ألكسندر ستيبتشفيتش : تاريخ الكتاب ، ترجمة محمد الأرناؤوط ، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب ، 1993 م ، ص 240 .

(5) _ عبد الرحمان بدوي : التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية ، دار القلم ، بيروت ، لبنان ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، 1980 م ، ص 58

(6) _ النديم : الفهرست ، مكتبة الخياط ، بيروت ، لبنان ، 1964 ، ص 118 ؛ ياقوت الحموي : معجم الأدباء : إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ، تحقيق إحسان عباس ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، 1993 ، ج 12 ، ص 53 .

(7) _ أنظر على التوالي : النديم : المصدر السابق ، ص 100 ، 120 ؛ ابن صاعد الأندلسي : طبقات الأمم ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، لبنان ، 1912 م ، ص 48 ، 49 ؛ أحمد بن علي القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، المؤسسة المصرية للتأليف و الترجمة ، القاهرة ، مصر ، د.ت ، ج01 ، ص 466 .

عبد الباسط عبد الرزاق الألوسي و عثمان عبد العزيز صالح المحمدي : "من روائع الحضارة العربية الإسلامية " مكتبة بيت الحكمة أنموذجا " ، مجلة ديالى ، 2009 م ، ص 07 ، 08 .

(8) _ راغب السرجاني : المرجع السابق ، ج 01 ، ص 227 ، 228 ؛ عمر فاروق فوزي : بحوث في التاريخ العباسي ، نشر مشترك دار القلم ، بيروت ، لبنان مكتبة النهضة ، بغداد ، العراق ، الطبعة الأولى ، 1977 ، ص 188 .

(9) _ راغب السرجاني : المرجع السابق ، ج 01 ، ص ؛ يحيى وهيب الجبوري: بيت الحكمة و دُور العلم ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، 1427 هـ / 2006 م ، ص 36 ، 39 .

(10) _ للمزيد حول مقتنيات بيت الحكمة أنظر : يحيى وهيب الجبوري : المرجع السابق ، ص 39 .

(11) _ خالد كبير علال : مقاومة أهل السنة للفلسفة اليونانية ، دار المحتسب ، 2008 ، ص 06 .

(12) _ راغب السرجاني : المرجع السابق ، ج 01 ، 230 .

(13) _ أمينة بيطار : تاريخ العصر العباسي ، منشورات جامعة دمشق ، سوريا ، 1996 م ، ص 410

(14) _ راغب السرجاني : المرجع السابق ، ج 01 ، ص 231 ، 232 .

(15) _ فيليب دي طرازي : خزائن الكتب العربية في الخافقين ،وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة ، بيروت ، لبنان ، 1947 م ، ص 100 ، 101 ؛ راغب السرجاني : المرجع السابق ، ج 01 ، ص 233.

(16) _ راغب السرجاني : المرجع السابق ، ج 01 ، ص 233 .

(17) _ النديم : المصدر السابق، ص 333.

(18) _ راغب السرجاني : المرجع السابق ، ص 234 .

(19) _ راغب السرجاني : التتار من البداية إلى عين جالوت ، ص 161 ، 162 .